



الصوفي والفقيه في رحلة عبور الصحراء

الباحث: خالد محمد

مؤسسة: C N R P A H الجزائر

أدت حركة الكشف الجغرافية إلى الاتصال المباشر بين قارتي أفريقيا وأوروبا عبر المحيط الأطلسي، إلى التقليل من أهمية النشاط التجاري، ودوره المحوري اقتصاديا وثقافيا بين منطقة المغرب العربي الكبير، وأفريقيا جنوب الصحراء، حيث ضاق نطاق التواصل بين القضاة لئتمحور على أسس دينية ثقافية فقط، والنتيجة كانت ضعف التواصل بين الفضائيين المغاربي والإفريقي، أو تضيقه في أحسن الأحوال. فقد كانت عملية التبادل التجاري التي تؤدي فيها المنطقة دور الوسيط بين القارتين، بواسطة القوافل التجارية العابرة للصحراء، منذ الأزمنة القديمة، زيادة على مردودها الاقتصادي، عامل تواصل بين منطقة المغرب العربي وأفريقيا جنوب الصحراء

إلا أن الزخم الذي عرفته الممارسة الصوفية الطرقية، بإعادة تنظيم الحركة الصوفية التي دب فيها الركود والجمود، بتشكيل طرق صوفية جديدة، على يد تلاميذ وأتباع عدد من الرموز



الصوفية في تلك الفترة، وبالتحديد مع نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م والتي كانت تمر فيها المنطقة بأزمة مضاعفة سياسية واقتصادية، شكلت أوج الأزمة الكبرى التي انفجرت بالمنطقة منذ منتصف القرن 13م ولكن ازدهار الحركة الصوفية الطرقية، بعد الحركية التنظيمية التي خضعت لها، أعاد التواصل والترابط بين الفضائين المغربي والإفريقي جنوب الصحراء وإن بتغيير محتواه، وذلك بتحوّل التواصل والترابط بين الفضائين من طبيعته التجارية ذات البعد الاقتصادي مع يمكن أن يحمل معه من تأثيرات دينية ثقافية، إلى تواصل ذو بعد ديني روحي و ثقافي بالدرجة الأولى. وتمثل تجربة كل من :

. سيدي أحمد بن يوسف الملياني المتوفى في 931هـ 1524م الذي انطلق من الصحراء باتجاه الشمال، حيث تمكن عدد من تلاميذه وأتباعهم من تأسيس عدد من الطرق الصوفية انتقلت بعد فترة من الزمن إلى الفضاء الصحراوي، مباشرة كالشيخية، أو عن طريق المغرب الأقصى كالناصرية.

. الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى في 909هـ 1503م الذي عبر الصحراء من الشمال مرورا بتوات إلى أفريقيا جنوب الصحراء، فرغم تمكنه من علم الظاهر وتضلعه في الشريعة والفقه، فإن تراثه الروحي في علم الباطن هو الأوسع انتشارا وهو



الذي كتب له البقاء حتى الوقت الراهن، من خلال الطريقة القادرية التي مازال مريدوها منتشرين حتى الآن في منطقة أفريقيا جنوب الصحراء.

النخبة وممارسة الشأن العام:

لقد اضطرت النخبة بمنطقة المغرب الكبير نهاية القرن 15 م وبداية القرن 16م إلى اتخاذ موقف من الأحداث السياسية التي كانت تمر بها المنطقة، حيث وجدت نفسها أمام عدة حلول: إما الثورة على الأوضاع كما فعل المغيلي أو الهجرة كما فعل الونشريسي أو المدح كما فعل الحافظ التنسي والشاعر الحوضي أو الانعزال كما فعل الثعالبي وتبعه فيه تلميذه محمد السنوسي⁽¹⁾ ولكن ذلك لم يكن على حساب الاهتمام بالشئون العامة وأحوال المسلمين المتدهورة إلى جانب الاهتمام بالجانب العلمي والإنتاج الفكري.

وقد أدت مدرسة الجزائر بقيادة الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي دورا محوريا في المجالات الدينية الفكرية والسياسية، عبر عدد من تلاميذه وفي مقدمة هؤلاء، نجد كل من محمد بن يوسف الشريف السنوسي التلمساني، وأحمد الزروق مجدد الطريقة الشاذلية، بوضع أسس الطريقة الزورقية، والإمام محمد بن عبد



الكريم المغيلي مجدد الطريقة القادرية بالجنوب الكبير وبلاد السودان بإفريقيا الغربية.

والثعالبي رائد هذه المدرسة لم يكن إلا نتاج هذا العصر الذي تأثر به، ولكنه أثرفيه تأثيرا كبيرا في ميدان التصوف والزهد عبر ثلاثة طرق: الأول تلاميذه فقد كان مدرسا ناجحا وعلما واثقا من رسالته. والثاني طريق كتبه فهو لم يكن مجرد زاهد بسيط أو درويش منعزل، ولكنه كان ينشر دعوته وأفكاره عن طريق الكلمة المكتوبة التي كانت تنتقل من يد إلى يد ومن جيل إلى لآخره. والثالث زاويته التي أسست عند ضريحه، والتي أصبحت مقصد الزوار طالبي البركة والشفاء وملتقى الدارسين.⁽²⁾

فإذا كان عبد الرحمن الثعالبي قد ابتعد عن مخالطة حكام تلك الفترة وأشاد بالذين لا يعرفون الحكام ولا يخالطونهم، فالابتعاد عن الحكام الظلمة كان من شيمه كبار العلماء على حد تعبير تلميذه السنوسي، فهذا الموقف لم يمنع لا السنوسي التوحيدي ولا الحافظ التنسي من الوقوف إلى جانب المغيلي في قضية يهود توات باعتبارها شأنا من شئون المسلمين مثل شيخهم الذي لم تمنعه مقاطعته للحكام من الاهتمام بشئون المسلمين والوقوف معهم للتصدي للخطر المحدق بهم بل كان في الطليعة يبين ذلك تلك الرسالة التي بعث بها إلى محمد بن الفقيه أحمد



الكفيف من سكان نواحي بجاية يعبر فيها عن فرحته باستعداد أهل بلد والده الشيخ أحمد الكفيف للجهاد بصناعة درق 'درع' العود التي لا تنفذ منها السهام والسيوف بدل الجلد الذي لا يكاد يمنع نفاذها لحماية المحاربين لأنه جرب ذلك بنفسه. ويخبره بأن أهل مدينة الجزائر وباديتها رجالا ونساء يستعدون هم للجهاد أيضا بعد أن حرضهم عليه بصناعة درق العود من الصفصاف وبعد أن أعوزهم الصفصاف صنعه من الفرنان، وإذا كان الشيخ مرتاحا لأهل بلد أحمد الكفيف فإنه يتأسف من موقف سكان بجاية الذين لم يستجيبوا له رغم الخطر الذي يتهدهم من جهة باب أمسيوين لضعف تحصيناته خاصة وأنه كاتب فقهاءهم وعلماءهم للنهوض والاستعداد للجهاد، وأنه طلب من والده أحمد الكفيف مكاتبتهم وتنبههم إلى واجب القيام بالجهاد، ويتوقع هجوم بني الأصغر يقصد الروم كما يسميهم على المنطقة انتقاما لهزائمهم على يد المسلمين في القسطنطينية وغيرها خاصة وهم المتعصبون لمعتقداتهم الدينية، ويعتقد أن الهجوم أصبح وشيك الوقوع لرؤيته للنبي صلى الله عليه وسلم وهي حق يحث الناس على الجهاد والاستعداد له.⁽³⁾

لم يشر الثعالبي في هذه الرسالة إلى حاكم أو أمير بل كان يخاطب الخاصة من العلماء لتعبئة وتحريض الناس على القتال



للدفاع عن أنفسهم دون الاعتماد على قوة رسمية أو خارجية، مما يبين حالة الفراغ السياسي وانعدام القيادة في هذه الفترة بالمنطقة، فالناس تركوا لأنفسهم يتدبرون أمورهم ويدافعون عن أنفسهم، كما تكشف خبرة الشيخ الدقيقة بالأسلحة ووسائل الدفاع الناجعة فيذكر أنواع الأسلحة ومواد تصنيعها والسرعة في ذلك ووفرته وزهد ثمنها مقارنة مع الأسوار التي تتطلب التكاليف الباهظة وطول الوقت لإنجازها، كما تبين معرفة الشيخ بأحوال البلاد الدقيقة وإطلاعه على أحوال العالم والربط بين ما حصل للروم في الشرق وما يمكن أن يحدث بالمنطقة انتقاما لذلك. وتوضّح أخيرا وسائل التحريض على القتال والنهوض للجهاد والاستعداد لذلك اعتمادا على جوانب روحية معنوية لإقناع عامة الناس ممثلة في الكرامة الصوفية مجسدة في رؤيا النبي في المنام والجزاء الذي ينتظر المجاهدين وهو العتق من النار.⁽⁴⁾

فضاء الممارسة الصوفية بين الملياني والمغيلي

إذا كان المغيلي قد انخرط في الشئون العامة إلى جانب إسهامه الفكري على مدى اتساع رقعة الفضاء المغربي، وما نتج عنه من صدامات بينه وبين الحكمين الزياني بتلمسان والمريني الوطاسي بفاس، واضطر للهجرة إلى بلاد السودان بإفريقيا جنوب الصحراء، مرورا بتوات مع تنوع في انتاجه الفكري بين الديني والسياسي، فإن



زميله أحمد زروق في مدرسة الثعالبي قد غلب عليه جانب النشاط الفكري من خلال إنتاجه في مختلف العلوم الدينية والتصوف، هذا الأخير شكل قاعدة الانطلاق لكل من محمد الخروبي وسيدي أحمد بن يوسف الملياني اللذين كانا من أبرز تلاميذه لإعادة إحياء وتجديد الطريقة الشاذلية الزروقية.

فالخروبي كان إسهامه في الجانب النظري للممارسة الصوفية الطرقية مثل شيخه أحمد زروق فقد ظلت مؤلفاته في الأوراد والأذكار وشروح مصادر الطريقة الشاذلية الزروقية موضع عناية ودراسة العلماء والمتصوفين فترة طويلة، حيث استطاع أن ينشر مبادئ الطريقة الشاذلية بشكل لم يحصل قبله رغم مساهمة غيره في نشر تيار التصوف كمحمد السنوسي... وغيره فتبسيطه لقواعد التصوف العملي ومبادئ الطريقة الشاذلية لم يسمح لأحد بعده أن يحتل مكانته أو يفنّد أقواله.⁽⁵⁾

وقد قام عبد الرحمن الأخضرى المعاصر له والذي يعد من أبرز تلاميذه على الإطلاق ببعض الأعمال المشابهة ولكنه لم يصل إلى درجته في التأثير في التصوف العملي، رغم أنه أخذ ورد الطريقة الشاذلية الزروقية عنه عند مروره بالزاب شمال شرق الصحراء في طريقه إلى الحج، إلا أنه أثر بعلمه أكثر مما أثر بتصوفه، فقد كانت كتبه تدرس بالشرق والمغرب وتوضع عليها الحواشي



والشروح، ولم يصنف في التصوف إلا القليل كمنظومته القدسية في التصوف، فهو لم يكن كالخروبي أو الزروق يؤلف في الأورد والأذكار أو تبسيط مبادئ التصوف عامة والطريقة الشاذلية خاصة، بل هاجم البدع ومن سماهم بعلماء السوء داعيا إلى العمل بالكتاب والسنة في محاولة منه لتأطير الممارسة الصوفية بهما ولكن أنى له ذلك. !!⁽⁶⁾

ولهذا لا نجد انتشارا للطريقة الشاذلية الزروقية في منطقة شمال شرق الصحراء بصورة جماعية منظمة عكس الغرب الجزائري والجنوب الغربي والمغرب الأقصى الذي انتشرت فيه هذه الطريقة بصورة جماعية منظمة مباشرة، أو عبر عدد من الطرق الصوفية المتفرعة عنها قام بتأسيسها مجموعة من تلاميذ سيدي أحمد بن يوسف الملياني، والتي تبرز الجهد التنظيمي للتصوف العملي الذي قام به، بل تعدى تأثيره إلى الجهة المقابلة من الصحراء حيث نجد تأثير مدرسة الملياني الصوفية وإن كان بصورة فردية غير منظمة في شكل المؤسسة الطرقية الذي تبرزه المآثورات الشفهية بمنطقة شمال شرق الصحراء مباشرة بالتلمذ على سيدي أحمد بن يوسف الملياني لعدد من الشخصيات بالمنطقة والذين تنسبهم هذه المآثورات إلى أخص المقربين للشيخ وهم لمذايبح ابتداء بمحمد بن عبد الله المدعو سيدي نايل الذي لقب بهذا اللقب



لنيله العلم من سيدي أحمد بن يوسف الملياني وسيدي بوزيد دفين القرية التي تحمل إسمه قرب آفلو بالاغواط وسيدي عيسى دفين المدينة التي تحمل إسمه بالمسيلة وسيدي امحمد السايح بالعلية بورقلة، وإن كانت الرواية الشفهية تضيف إليه رتبة مقدم الطريقة القادرية، حيث يبدو أنه كان ينتمي للطريقتين القادرية والزورقية، وهو أمر شائع كثيرا أي الجمع بين طريقتين صوفيتين وأكثر، وقد عبر عن هذه المعطيات الشفهية الرواية ببلدة سيدي خالد ببسكرة المرحوم عبد الحفيظ عفيصة المدعو حفه جمانفو: "عندما كان سيدي أحمد إوزّع في الوليا بعث لنا هاذو" وذكر منهم هؤلاء الذين احتظت بهم ذاكرته، وعشيرة دويدات بأولاد جلال التي تنتمي لعرش لمذابيح بغرداية المنحدرين من أحد مذابيح سيدي احمد بن يوسف حسب رواية المرحوم الحاج عبد القادر دودية، أو بصورة غير مباشرة عبر فروع الطريقة التي أسسها تلاميذه مجسدة في أسماء أماكن ومقامات وأعلام كمقام سيدي عطالله ابن أخت عبد القادر بن محمد المدعو سيدي الشيخ، دفين تاجمونت بالأغواط الذي بني حوله مسجدا بالحي الذي يحمل اسمه ببلدة أولاد جلال ببسكرة، كذلك فإن أسلاف مؤسس الزاوية المختارية الرحمانية الشيخ المختار بأولاد جلال في القرن 19م عشيرة أولاد بخليفة المستوطنة ببلدة سيدي خالد المجاورة هاجر



جدها عبد الرحمن بن احمد حسب المرويات في القرن 17م، حيث تنسب هذه العشيرة إلى لقب جدها أحمد المدعوا خليفة وهو لقب أطلق عليه لأنه كان خليفة سيدي الشيخ ببلدة الخيثر قرب بوقطب بولاية البيض، وعلى عادة الناس في تسمية أبنائهم بأسماء الأشخاص المعجبين بهم، أو المؤثرين في حياتهم نجد هذا الجد عبد الرحمن قد أطلق على إثنين من أبنائه إسمي كل من بن يوسف والزروق مما يوحي بأنه كان من مريدي الطريقة الشيخية، أخيرا فإن الشيخ عبد الباقي السماتي شيخ أمعمّره الصحن بأولاد جلال قد كان حسب المرويات الشفهية من مريدي الطريقة الناصرية التي أخذ وردها عن شيخها الرحالة الدرعي عند مروره بالمنطقة في رحلته إلى الحج. فهذه المعطيات تنبئ بانتشار الممارسة الصوفية بالمنطقة ولو بصورة فردية غير منظمة تنتسب للطريقة الشاذلية عبر فروعها، والتي كان لجهد الملياني وتلاميذه الدور الأكبر في انتشار الطريقة الزورقية بفروعها في الفضاء المغربي حسب الخطاطة التالية:



أما الإمام المغيلي الذي اتسع مجال نشاطه ميدانيا انطلاقا من الشمال والذي تسبب له في مشاكل مع الأنظمة السياسية اضطرته للهجرة نحو منطقة توات بالجنوب ليمتد إلى بلاد السودان بافريقيا جنوب الصحراء، وقد توزع انتاجه الفكري ليشمل عدة محاور من العلوم الشرعية والدينية كالفقه والتفسير والتصوف، وأصول السياسة الشرعية في تفسير شئون الرعية بمقتضيات أحكام الشريعة

وبهذا التنوع فإنه قد توجه بفكره نحو كل من الرعية والحكام، والذي إنعكس في نشاطه العملي بإعادة تجديد وإحياء الطريقة القادرية بتوات التي أخذ وردها من شيخه عبد الرحمن الثعالبي وأبوالعباس الوغليسي والخطاطة التالية تبين سند المغيلي في الطريقة الأكبرية القادرية

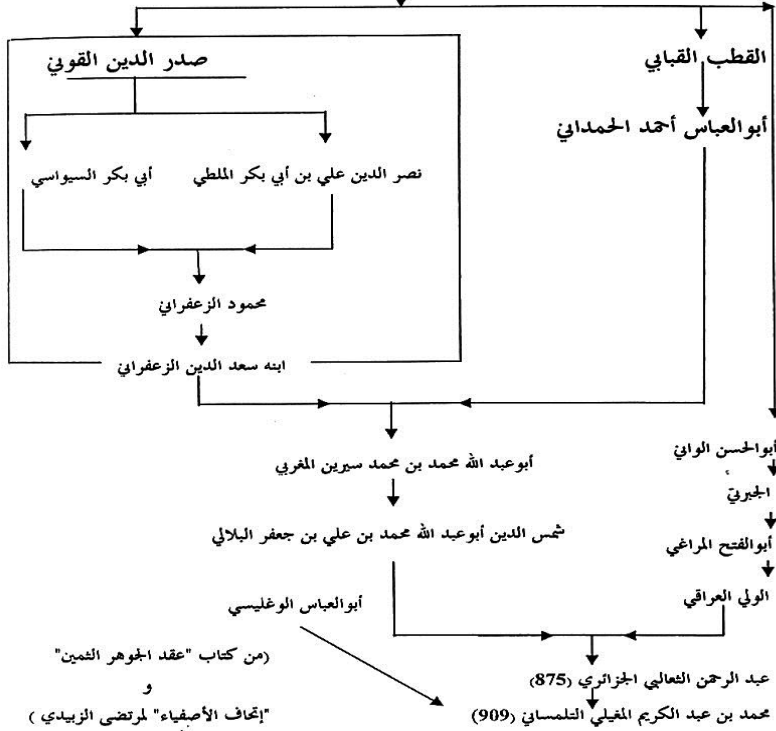


سند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في الطريقة الأكبرية القادرية

القطب عبد القادر الجيلاني (561)

جمال الدين يوسف بن يحيى بن أبي الحسن العباسي القصار

الشيخ الأكبر محمد بن علي بن العربي الحاتمي (638)



نقلا عن عبد الباقي مفتاح من كتابه أضواء على الشيخ عبد

القادر الجلاني وانتشار طريقته دار هومه عين مليلة الجزائر 2008 ص 388

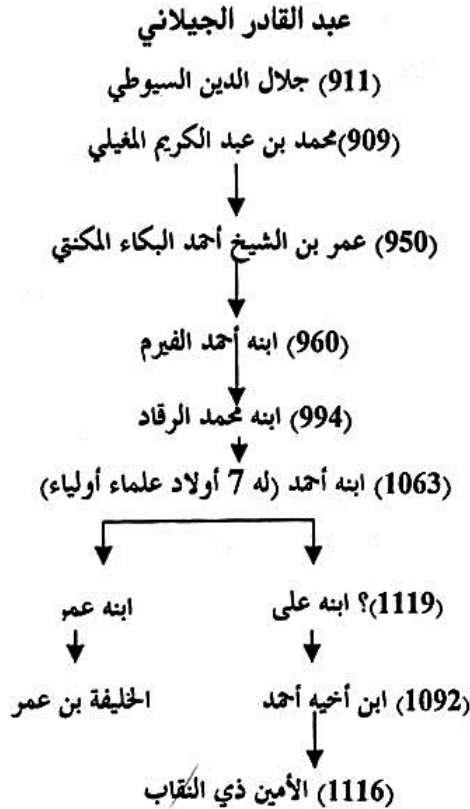


وتولى مشيختها كأداة للتعامل مع الرعية من العامة، وقد حمل هذا الإرث الروحي تلاميذه بمنطقة توات خاصة أولئك المنحدرين من قبيلة كنة الذين كانوا من مريدي الطريقة القادرية فقد كانت لهم زاوية بمدينة ولاته بموريطانيا أسسها الشيخ محمد الكنتي في القرن 8 هـ وقد ورث مشيخة الطريقة منهم بعد فاته عمر الشيخ بن احمد البكاي وخلفاؤه الذين واصلوا نشر الطريقة القادرية عبر فروعها البكائية والفاضلية والسيدية⁽⁷⁾ والبكرية في غرب أفريقيا جنوب الصحراء حسب الخطاطتان التاليتين :



الأولى تبين سلسلة السند للطريقة الكنتية القادرية.

السلسلة الكنتية القادرية الأولى



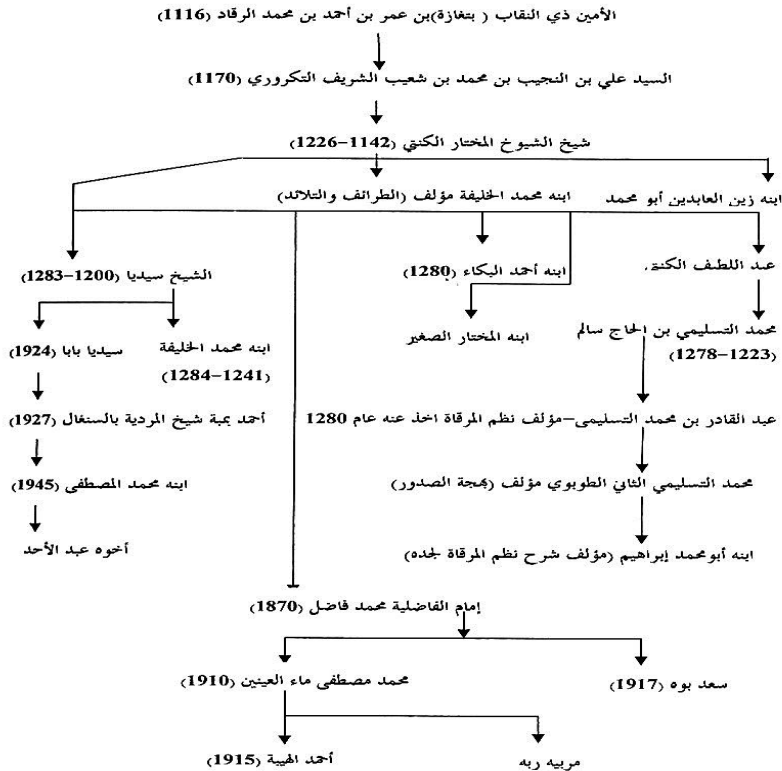
من كتاب :عبد الباقي مفتاح : أضواء على الشيخ عبد القادر
الجيلاني وانتشار طريقته : دار الهدى . عين مليلة الجزائر 2008 ص 407



والثانية تبين انتشارها عبر سلسلة بعض شيوخها

في الصحراء وبلاد السودان بأفريقيا جنوب الصحراء

سلسلة بعض شيوخ القادرية الكنتية في الصحراء وإفريقيا الغربية.





ومن كتاب : عبد الباقي مفتاح : أضواء على الشيخ عبد
القدر الجيلاني وانتشار طريقته : دار الهدى . عين مليلة . الجزائر
2008 ص 408

أما تعامله مع الحكم من الخاصة فتبرز فيما كتبه لحكام
بلاد السودان يوضح لهم فيها أصول الحكم وقواعده الشرعية ففي
رحلته إلى هذه البلاد حيث أقام بمدينة كاستنا وكانو ثم غاو
فإضافة لقيامه بالتدريس في مدينة كانو ببلاد الهوسا فقد كتب
لأميرها أبو عبد الله محمد الرمضا الذي استشاره في أمور السلطنة
رسالة بين له فيها أصول الحكم وقواعده الشرعية، وفي أمرطورية
السنغاي التي اجتمع بها أهلها الأسقيا الحاج محمد الكبير الذي
استرشد بأفكار المغيلي في السياسة والحكم وفق الشريعة الإسلامية
التي حررها في كتاب "أجوبة على أسئلة الأسقيا الحاج محمد
الكبير*" رد فيه على الأسئلة التي وجهها له تضمن جملة من
التوصيات لإقامة حكومة وإدارة مطابقتين لأحكام الكتاب والسنة.
(8)

مجال الممارسة للشأن العام لدى المغيلي والملياني:

إن اهتمام كل من المغيلي والملياني بالشأن العام واتخاذ
مواقف من الأوضاع السياسية لم يكن حدثا منعزلا قاما به دون
غيرهما بل كان ظاهرة عامة على امتداد القرن 15 م وبداية القرن



16 م سواء في محيطهما القريب بالمغرب الأوسط وهو ما قام به الشيخ سيدي عبد الرحمان الثعالبي في إقليم مدينة الجزائر بالتعبئة والمشاركة في الجهاد للتصدي للغزو الإسباني وحثه سكان منطقة بجاية التابعة للحكم الحفصي على الاستعداد للقيام بواجب الجهاد في رسالته المذكورة سابقا ولكنه لم يرأسه انسجاما مع موقفه من الحكام بل راسل محمد ابن الفقيه أحمد الكفيف في هذه القضية، وهو نفس الدور الذي أداه كل من سيدي الهواري المتوفى في 1439 م في الدفاع عن مدينة وهران وسيدي محمد التواتي المتوفى في 1475 م في الدفاع عن مدينة بجاية ولم تسقط المدينتين في يد الأسبان إلا بعد وفاة الشيخين في بداية القرن 16م،⁽⁹⁾ أو البعيد نسبيا بوقوف الجزوليين بالمغرب الأقصى خلف السعديين للتصدي للغزو البرتغالي ولأسباني، والشابيين الذي تصدوا للأسبان بأفريقيا الحفصية فمواقف رموز مدرسة الثعالبي وتلاميذه كان ظاهرة عامة بالمنطقة بسبب ضعفها وتفكك كياناتها السياسية الأمر الذي فرض على رموز النخبة الدينية هذا الموقف فالاهتمام بالشأن العام والتدخل في شئون الحكم في تلك الفترة، كان نتيجة الأوضاع المتدهورة التي عرفت المنطقة خاصة بعد الهجوم الذي تعرضت له من طرف الأسبان والبرتغاليين الذين استولوا على الثغور الساحلية على امتداد سواحل بلدان المغرب



العربي كلها، وهكذا نجد هذه النخبة التي كانت منضوية في المؤسسة الطرقية الصوفية التي التجئ إليها السكان لمقاومة الغزو الأجنبي سواء في أفريقيا الحفصية أين تصدت لهذه المهمة الطريقة الشاذلية التي أسسها أحمد بن مخلوف الشاذلي المتوفى في 1482م بقيادة ابنه سيدي عرفة الشاذلي الذي دخل في صراع مع الحكم الحفصي ثم الأسبان ابتداء من 1530م وأخيرا ضد الأتراك بعد أن أسس إمارة بمنطقة القيروان بوسط تونس. وفي المغرب فإن الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو عبد الله الشاذلي بإقليم آسفي ومنه انتشرت في مختلف أرجاء المغرب عبر فروعها، وصار له نفوذ كبير أثار مخاوف والي آسفي الذي نفاه من الإقليم في 1465 وما لبث أن تولى بأفوغال. قيل بالسم. في 1470م فإن تلميذه وخليفته على رأس الطريقة عبد الله بن المبارك المتوفى في 1509م اعتذر عن قيادة الجهاد ولكنه أشار على أعيان القبائل الذين طلبوا منه ذلك إلى أحد الأشراف بوادي درعه للقيام بهذه المهمة وهو أبو عبد الله محمد مؤسس الدولة السعدية التي قادت الجهاد ضد الأسبان والبرتغاليين في الثغور الساحلية المغربية بعد أن وافق هؤلاء الأعيان على اقتراح الشيخ فأرسلوا في طلب الشريف فجاء بأسرته وبإيعوه في 1510م ولقبوه بالقائم بأمر الله. (10)



وتهمة السعي للاستيلاء على الحكم لم توجه إلى هؤلاء الرموز من متصوفي القرن 16م بل وجهت قبلهم إلى سيدي بومدين بعد أن اشتهر أمره وشاع في الآفاق ذكره سعي به علماء الظاهر عند خلفاء بني عبد المؤمن في عهد الخليفة أبو يعقوب المنصور إننا نخاف على دولتكم منه، فإن له شبها بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد فوقع في قلبه وأهمه شأنه، فأمر بطلوعه من بجاية إلى حضرته، وكتب إلى والي بجاية بالوصية عليه أن يحمل خير محمل⁽¹¹⁾ وذلك مخافة تكرار ما قام به ابن تومرت مع دولة المرابطين، بسبب للتحريض ضده واتهامه بالتحضير لذلك. بينما المتصوفين سواء سعوا لقلب نظم الحكم القائمة حقيقة أو كان ذلك مجرد اتهام فإنه لم تقم ولا تجربة واحدة ناجحة، بل وحتى محاولة الشابية عبر تأسيس إمارتها بالقيروان لم تعمر طويلا وسرعان ما قضى عليها الأتراك

إذا كان المغيلي قد اضطر للهجرة إلى إقليم توات التي أثار بها قضية اليهود وموقفه منهم والتي انقسم حولها فقهاء تلك الفترة بين مؤيد له ومعارض ودخل بسببها في اشتباك مع حكام فاس الوطاسيين الذين اتهموه بتحريض من فقهاءها بالطموح إلى أكثر من مجرد النهي عن المنكر والأمر بالمعروف أي السعي للوصول إلى الحكم، رغم نفييه لذلك بشدة في المناظرة التي عقدها



مع علماء فاس الذين عارضوه في هذه القضية بحضور السلطان الذي مال إلى رأي الفقهاء في اتهامه، بالسعي للاستيلاء على الحكم، وكان جوابه للسلطان على هذا الاتهام: "لا أرى ملكك إلا كما أرى الكنيف"⁽¹²⁾ وعاد إلى توات. فإن الملياني الذي دخل في صراع مع الحكم الوطاسي بفاس والزياني بتلمسان بسبب التقاعس عن القيام بواجب الدفاع والتصدي للغزو المسيحي الذي تتعرض له بلاد الإسلام فقد وقف إلى جانب الأتراك في محاربة الأسباب مكتفيا بدور معنوي بحث السكان على الانخراط في الجهاد تحت قيادتهم.

فالمغيلي لم يكن الوحيد الذي اضطر إلى الهجرة من تلمسان نحو الجنوب الكبير بل اضطر إلى ذلك أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار الذي هرب من تلمسان خفية في 1470 م مهاجرا إلى مدينة فاس بسبب اتهامه من طرف السلطان الزياني المتوكل بالتآمر عليه بعد أن انتهبت داره ثم أحرقت، ولا يستبعد المهدي بوعبدالي أن يكون لذلك علاقة بهجرة المغيلي الذي كانت تربطه صداقة وطيدة بالونشريسي،⁽¹³⁾ وهو نفس المصير الذي تعرض له الملياني الذي رغم هروبه وتخفيه في بلاد هواره وبالتحديد بقلعة بني راشد من مطاردة الحكم الزياني، حيث لم يجد عندما كان هاربا من وهران مروراً برأس الماء إلى هواره إلا هذا الدعاء على الحاكم الزياني "شوشونا شوش الله عليهم في البر والبحر" ومع



ذلك فإنه لم يفلح في النجاة من السجن مرتين بعد إلقاء القبض عليه.⁽¹⁴⁾

إلا أن المستغرب بعد كل هذه المواقف من الأوضاع السياسية بالمنطقة والأحداث التي تمر بها والمبادرات التي قام بها كل من المغيلي والملياني وما نتج عنها من مضايقات وما لحق بهما من مصاعب وما سببته لهما من متاعب نتيجة التشريد والسجن، هو موقف الدارسين المعاصرين لكل من المغيلي والملياني وذلك من خلال المقارنات التي يقومون بها بينهما وبين العلماء المتصوفين المعاصرين لهما خاصة الجزوليين بالمغرب الأقصى الذين كانوا هم قاعدة الدولة السعدية فجاك بارك يتساءل عن سر امتناع الملياني عن القيام بدور الموحد للسكان لقيادتهم في الجهاد للدفاع عن بلادهم رغم أن الوضعية العامة بالمغرب الأوسط كانت تسمح بذلك بل تتطلب ذلك بسبب حالة الفراغ السياسي التي كانت تعاني منها مثل الجزوليين بالمغرب الأقصى،⁽¹⁵⁾ أما حاج صادق فيتساءل لماذا فضل الملياني الوقوف إلى جانب خير الدين شرط عدم التعرض لأبنائه هو وأتباعه في تلك الرسالة التي بعث له بها ردا على رسالته والتي ورد فيها من التحفظات ما يلي: "إن حكمك لا يجري علينا ولا على نسلنا ولا على من تعلق بنا ولا على نسلهم فإن رهبتم أحسنتم وإن خالفتم عوقبتم" التي نشرها في كتابه



مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف فرغم ترحيبه بالأتراك كمدافعين عن دار الإسلام إلا أنه كان يتوقع الأضرار من حكمهم وحذره وتوجسه منهم، خاصة وأن التخوف منهم كان شائعا في أتباعه حتى أنه اضطر مرة لأن يهدئ من تخوفات أحدهم قائلا له: "إن الترك إذا رأونا ذابوا كما يذوب الملح في الماء"، فالملياني حسب حاج صادق لم تكن له صلابة وقوة الثوار المغاربة الذين قادوا الشعوب وأطاحوا بالدول⁽¹⁶⁾ وقد تبنى هذه الأفكار وعمّقها رشيد بليل الذي يرى بأن ما كان يهم الملياني هو ضمان الحرية لمريديه وأتباع طريقته الصوفية مكتفيا بدور جهوي روحي عبر طريقته الصوفية واجتماعي بالتوسط في فض النزاعات بين قبائل المنطقة وانتقاد الحكم الزياني بتلمسان والوطاسي بفاس على التقاعس وعدم القيام بواجب التصدي للعدوان الذي تعرضت له سواحل المنطقة وثغورها من البرتغاليين والأسبان متسائلا عن المانع الذي حال دونه لفرض نفسه كمرشح للحكم وأن لا يكتفي بتأسيس طريقة صوفية فقط بل أسرة حاكمة تدمج فيها القوة العثمانية تتموضع في المقدمة للدفاع عن المغرب الأوسط مثل الجزولين بالمغرب الأقصى.⁽¹⁷⁾ أو في العمل الذي قدمه عبد القادر بوعلقة تحت إشراف جاك بيرك حول تميميون الواحة الحمراء انطلاقا من الحادثة التي وقعت له بفاس بأنه كان مغامرا سياسيا سعى لإقامة



كيان سياسي بالجنوب الصحراوي، وأيده في ذلك رشيد بليل ولكنه مني بالفشل، وأن موقفه في قضية جهود توات كانت البداية والانطلاقة لهذه المغامرة الفاشلة. ⁽¹⁸⁾ ولكن هل حقيقة أن الجزولين قد قاموا بتسيير الشئون العامة ومنها قيادة الجهاد ضد البرتغاليين المحتلين للثغور الساحلية بالمغرب الأقصى الواقعة على الواجهة الأطلسية؟ والجواب حسب المصادر التاريخية هو اعتذار الشيخ عبد الله بن المبارك الجزولي . ربما خوفا على نفسه من المصير الذي لقيّه شيخه . عن هذه المهمة التي تصدى لها بنصيحة منه القائم بأمر الله أبو عبد الله محمد مؤسس الدولة السعدية، والملياني لم يقم بأكثر مما قام به الجزولي، في تأييده وقوفه إلى جانب الأخوين بربروس في التصدي للأسبان المحتلين للثغور الساحلية ونعتقد أنه لو وجد شخصية محلية تتصدى لهذه المهمة لما تردد في الوقوف إلى جانبها ودعمها، خاصة وأنه أدخل السجن من طرف الحكم الزياني لهذا السبب بالذات وليس غيره، بعد اتهامه للزيانيين بالتقاعس عن القيام بواجب الدفاع عن بلاد المسلمين وحمايتهم، فالمشكلة ليست في الملياني لأنه لم يكن وراء قيام أسرة حاكمة، وإنما في المجتمع الذي لم يفزر مثل المغرب الأقصى الشخصية التي تؤسس مثل هذه الأسرة.



والمغيلي الذي أول ما نزل بالمنطقة كان بقصر آت سعيد قرب تيميمون بقوراره وباعتباره قادريا فإن محاولته تأسيس زاوية ليس مستغربا بل يعد أمرا عاديا تجاوبا مع تيار العصر الذي تحولت فيه الممارسة الصوفية إلى ممارسة جماعية منظمة أخذت شكل المؤسسة مجسدة في الزوايا الطرقية، فاستقراره بالوحدات الصحراوية بالجنوب الكبير لم يكن محاولة منه لإعادة إحياء تجربة رباط عبد الله بن يسّ الذي أرسى دعائم الدولة المرابطين في مقارنة غير معلن عنها بينهما، لأن المعطيات السياسية والمأثورات الشفهية نتيجة التغيرات التاريخية بالمنطقة لا تؤكد ذلك بل أن استقراره بالمنطقة والأعمال التي قام بها والأدوار التي أداها سواء تلك المتعلقة بمحاولته إقامة سوق مركزي بالمنطقة، أو محاولته تأسيس زاوية قرب تيميمون وفشله في ذلك ثم نجاحه بعد تحوله إلى تمنطيط في إقامة زاوية صارفا النظر عن فكرة تأسيس السوق، أما إثارته لقضية يهود توات التي سممت العلاقة بينه وبين الحكم الوطاسي بفاس الذي اتهمه بأن له طموحا يتجاوز مجرد الاهتمام بالقضايا الشرعية الفقهية إلى السعي للسيطرة على الحكم⁽¹⁹⁾ فرغم أنها قضت على أي تفكير لديه في العودة إلى الشمال فإنها فتحت أمامه آفاقا لنقل اهتمامه ونشاطه الفكري والديني نحو الجنوب في بلاد السودان بأفريقيا جنوب الصحراء.



ورغم أن المعطيات التاريخية تبين أن مجال المغامرة كان مفتوحا في الشمال لو كان حقا ذو طموح سياسي، فإن نشاط المغيلي في توات وبلاد السودان يوضح وينفي ذلك فمحاولته حسب المآثرات الشفهية إقامة سوق قرب تميميون بقورارة تنبئ بأنه كان يريد تكسير الجالية اليهودية اقتصاديا بوضع يده على نقطة قوتها وهي السوق مجال نشاطها الاقتصادي ولعدم تمكنه من ذلك أسس زاوية تمنطيط بتوات لمحاربتهم دينيا بعد محاربتهم سياسيا بواسطة العنف المادي المباشر، فقراءتنا للمعطيات الشفهية بصورة مغايرة يمكن أن نتعرف على شخصية المغيلي ومواقفه من حوادث العصر.

إن امتداد وتوسع دور الزاوية الطرقية عبر شيوخها خارج مجالها التقليدي الديني الروحي والتربوي في تلك الفترة كان أمرا شائعا خاصة في المناطق المعزولة البعيدة عن سيطرة السلطة السياسية المركزية، أو المناطق المضطربة سياسيا بسبب ضعف وتفكك بنيتها السياسية، حيث تقوم بأداء بعض الأدوار الاجتماعية كفض النزاعات بين القبائل والأفراد لغياب الهيئة القضائية أو العسكرية كتعبئة السكان وقيادتهم في الدفاع عن أنفسهم باعتباره واجبا دينيا لتعاس السلطة السياسية نتيجة الضعف أو غيره عن القيام بواجب الجهاد عن للدفاع عن دارا لإسلام، أو الاقتصادية



بتقديم العون والمساعدة للسكان والدفاع عن مصالحهم الاقتصادية. فتوسع دور الملياني في البداية حتى الاصطدام مع الحكم الوطائيسي والزياني بسبب ما يراه تقصيرا في القيام بتحمل المسؤولية تجاه الرعية، بأداء ما يفرضه الواجب الشرعي لتحمل إمارة المسلمين، ثم تقلصه بعد تحالفه مع الأتراك الذين تكفلوا بهذا الجانب، مقتصرين في نشاطه بالتركيز على الجوانب الروحية والتربوية والاجتماعية. وامتداد وتوسع دور المغيلي إلى خارج المجالين الديني الروحي والاجتماعي في محاولته تأسيس سوق بإقليم توات وممارسته للعنف ضد الطائفة اليهودية وهما مجالان من اختصاص الدولة التي من وظائفها تنظيم الحياة الاقتصادية واحتكار العنف، ينبع من طبيعة المؤسسة الطرقية التي ينتميان إليها والتي تتوسع وتتمدد وظائفها، أو تنكمش وتقلص حسب حاجات ومتطلبات الحياة الاجتماعية في الفضاء الذي يحتضنها.

الخاتمة:

ختاما ماذا بقي من تجربة كل من سيدي أحمد بن يوسف الملياني، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في رحلتهم عبر الصحراء، ولو أنهما اتخذا اتجاهين معاكسين في رحلة عبور هذا الفضاء؟



بالنسبة لسيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي ترجع المآثورات الشفاهية أصله إلى توات وبالتحديد إلى الدامود وهو أحد القصور بإقليم توات وقد إنتقل من توات إلى تلمسان غير أنه ليست لدينا أية معلومات حول هذه الفترة المبكرة من حياته، ولو أن انتقاله هذا يبدو إراديا بالمقارنة مع اضطراره إلى الهجرة من تلمسان إلى وهران ثم لجوئه إلى قلعة بني راشد ببلاد هوارا لتنتهي رحلته في الحياة دفينا بمليانة نتيجة مطاردة الحكم الزياني لظروف وملابسات تاريخية بسبب موقفه من الأحداث، إلا أن ممارسة العنف المعنوي ضده تبدو هي سبب انتقاله من الجنوب الكبير نحو شمال المغرب الأوسط، يبرز ذلك في المآثورات الشفاهية حول ولادته ثم انتقاله إلى الشمال: لما وصل نبأ ولادة سيدي أحمد إلى والده سيدي منصور دفين قصر تيلكوزة بغورارة، وقد كان طاعنا في السن عندما رزق بالصبي مما جعله محل تنذر جماعة قصر دامود بتوات، فما كان من الوالد إلا الرد عن طريق الكرامة لإسكاتهم فأخذ الوليد ورماه في النار وكانت الكرامة أن احترقت لفائف القمط ولم يصب الصبي بأي أذى، ولأنه أدرك من هذا الاستقبال للوليد كرفض له قد يتسبب له في متاعب معنوية ومعاناة فقد كانت الكرامة الثانية بأن أخذه والده وربما به في الهواء فسقط في منزل شخص يدعى يوسف بقلعة بني راشد تبناه ورياه



ومن ثمّ صار ينسب إليه وإلى القلعة سيدي أحمد بن يوسف الرشيدي.⁽²⁰⁾

ورغم هذا العنف المادي والمعنوي الممارس ضده فإن رده كان فيما كتب له البقاء والانتشار من رحلته في الحياة وهو تراثه الروحي المستمد من تجربته الصوفية الزورقية أو عبرالطرق المتفرعة عنها لاحقا، حيث عمّ الغرب الجزائري والمغرب الشرقي والجنوب الكبير فرحيله المادي بجسده أو تهجيريه لم يمنع تراثه الروحي من الانتشار في الفضاء الذي ترجع إليه أصوله، والفضاء الذي هجر منه. أما مواقفه السياسية من أحداث الرحلة التي عاش فيها وتدخلاته في الشأن العام وتحالفاته فقد طواها التاريخ مثل تلك المرحلة واحتضنتها بطون الكتب لا يعرفها إلا المهتمون من الخاصة، أما العامة فلا تعرف عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني إلا أنه أحد الأولياء من رجال الله الصالحين.

أما المغيلي فإن ثورته على الأوضاع ومواقفه الحادة منها والعنف الذي مورس ضده من طرف الحكام بتواطؤ من الفقهاء التي اضطرته للهجرة نحو الجنوب الكبير الذي فتح أمامه مجال النشاط في بلاد السودان بإفريقيا أما إنتاجه الفكري في الفقه والتفسير واللغة والسياسة الشرعية فقد احتوتها بطون المخطوطات والكتب، في حين بقي تراثه الروحي المستمد من تجربته الروحية



مجسدة في ممارسته الصوفية المؤطرة في الطريقة القادرية الذي انتشر في الجنوب الكبير وبلاد السودان بغرب أفريقيا، رغم محاولات شخصيات صوفية قادرية قدمت إلى المنطقة من فضاءات أخرى وبالتحديد من مصر ممثلة في الشيخ محمود البغدادي شيخ الطريقة المحمودية، في 1550م⁽²¹⁾ فإن تجربة المغيلي القادرية هي التي كانت لها الهيمنة والانتشار عبر فروعها المتعددة، رغم اضمحلال الأسس التجارية والاقتصادية للعلاقات بين الفضائين والتي ساهمت المغامرة العسكرية للسلطان المنصور السعدي في 1591م في تعميقها بتبديل وجهة المنتجات التجارية نحو الساحل لفائدة التجار الأوروبيين فإن بصمات الطابع الإسلامي في شمال أفريقيا والصحراء تبرز بشكل واضح جدا على النخبة المثقفة من المسلمين في أفريقيا السوداء⁽²²⁾ حتى بداية القرن 20 الميلادي. فرغم العنف الذي مورس ضدهما فإن تراثهما الروحي كان هو الرد على هذا العنف، وذلك لانتمائهما إلى المؤسسة الطرقية الصوفية ، التي من تقاليدھا الراسخة مواجهة العنف بالتسامح بدل الانتقام.



الهوامش:

- 1- أبو القاسم سعد الله / تاريخ الجزائر الثقافي/ دار البصائر/ طبعة خاصة / الجزء الأول الجزائر 2007 ص4.
- 2- أبو القاسم سعد الله / تاريخ الجزائر الثقافي / مرجع سابق ص 92.
- 3- أبو القاسم سعد الله / أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر / دار البصائر / طبعة خاصة / الجزائر 2007 ص ص 204/205.
- 4- أبو القاسم سعد الله / أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر / مرجع سابق ص ص 206/207.
- 5- أبو القاسم سعد الله / تاريخ الجزائر الثقافي / مرجع سابق ص ص 499/500.
- 6- أبو القاسم سعد الله / تاريخ الجزائر الثقافي / مرجع سابق ص ص 501/502.
- 7- عبد الباقي مفتاح / أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته دار هومة / عين مليلة / الجزائر 2008 ص 386.
- 8- يوري كريم فال / المصادر العربية للتاريخ الإفريقي: التقييم والأفاق / تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومعهد البحوث والدراسات العربية بغداد 1984 ص 212* حققه عبد القادر زيادية S N ED الجزائر 1973م.
- 9- محمد حاج صادق / مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف/ ديوان المطبوعات الجامعية / الجزائر 1989 ص 101.
- 10- الفريد بل / الفرق الدينية في شمال أفريقيا ترجمة عبد الرحمان بدوي م دار الغر الإسلامي / لبنان 1982 ص ص 421 / 422.
- 11- ابن الخطيب القسنطيني . أنس الفقير وعز الحقيير تحقيق محمد الفاسي وأودلف فور المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط 1965 ص 102.
- 12- ابن عسكر محمد / دوحة الناشر / مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 2136 الجزائر ص ص 57 / 58.



- 13- المهدي البوعبدلي/أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودر الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات / ملتي الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وتاريخ توات/ المركز الوطني للدراسات التاريخية /المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية / الجزائر 1988 ص 74.
- 14- محمد حاج صادق / مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف / مرجع سابق ص 103 / 102
- 15- Rchid Bellil/ Ksour Et Saints Du Gou rara/ CNRPAH/ Alger 2003 p 109
- 16- محمد حاج صادق / مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف / مرجع سابق ص 105.
- 17- Rchid Bellil / ibid. p109
- 18- رشيد بليل / قصور غورارة وأولياؤها الصالحون / ترجمة عبد الحميد بورايو C N R P A H الجزائر 2008 ص.
- 19- عبد القادر زبادية/ التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي/ الأصالة العدد 28 الجزائر 8/7 / 1957 ص 212.
- 20- محمد حاج صادق / مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف مرجع سابق ص ص 77 / 76.
- 21- عبد الباقي مفتاح / أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته / مرجع سابق ص 409.
- 22- يوري كريم فال / المصادر العربية للتاريخ الأفريقي : التقييم والآفاق / مرجع سابق ص 213